هذا وطني

تحدثنا في الحلقات السابقة عن البعض من آثار تلك المدينة التاريخية، وآن الأوان وهي تتعرض للقصف التركي المستمر، لنتحدث عن سحر مصايفها وقراها ونواحيها التي لوثتها بعض شظايا القصف المستمر، ومع ذلك لم يمنع ذلك مريديها من التنعم بفاكهة كردستان تحت ظلال أشجار مصايفها، وفوق جبالها الجميلة في كل شيء. من الإنصاف أن نطلق عليها رغيف خبز كردستان، لما كانت عليه إبّان سلطة النظام المباد، لكونها هي من وهب الحياة لأهالي الإقليم، من خلال الضرائب التي كانت تفرض على البضائع الداخلة والخارجة من العراق، فكانت مصدر ثروة الإقليم من خلال معبريْها الحدوديين (إبراهيم الخليل) باتجاه تركيا، و (فيش خابور) باتجاه سوريا.

صورة من مدخل المصيف

مصيف (آشاوا) يعود منشداً أغاني السحر والجمال

جبل كاره يشكو من ركام قصور الطاغية

□ دهوك/ يوسف المحمداوي

دهوك التي رأيتها في ثمانينيات القرن الماضي، وحتى التي رأيتها في عام ٢٠٠٥ تختلف عن دهوك الحالية لما شهدته من حركة عمرانية ونهوض في جميع مناحي الحياة، الناس القادمة إليها من بغداد لم تمنعها المسافة الطويلة إلى دهوك والبالغة (٤٦٥) كم من الوصول إليها، بل اجزم بأنها ستتغافل عناء السفر مع أول خطوة في مدينة الجمال والنضال.

مدينة الأديان والقوميات

ما يميز دهوك عن محافظات الإقليم هو تعدد الأديان والقوميات. المتآخية فيها عبر رحلة زمنية طويلة مع التأريخ، فتجد فيها المسلم والمسيحي والإيزيدي، وفيها أقدم كهف سكنه الإنسان وهو (جارستين) الذي يقع في وادي دهوك الذي يبعد عن مركز المدينة كيلو مترا واحدا، وفي هذا الكهف يؤرخ لسلسلة حضارات وديانات عاصرها عبر مئات من القرون، وفيه أيضاً تجد المعبد الزرادشتي ذا الأعمدة الأربعة، اتفقت مع صديقي العزيز (ريبر) على أن يكون دليلي وقائدي في رحلتي باتجاه ناحية سرسنك، التي تتميز بروعة جبلها (كاره)، وتعدد غاباتها وبساتينها، فضلاً عن مصايفها، التي رفدتها الشلالات وعيون الماء وسحر الطبيعة من أشجار ومروج تسحر العقول.

ونحن نحث الخطى صوب سرسنك لا يمكن لعينيك أو عدسة كاميرتك أن تلحق بركب الجمال الذي يملأ جوانب الطريق إليها.

٩٠٠ كم مربع من الجمال

سرسنك تقع على بعد ٤١ كم من مركز المحافظة، وترتفع عن سطح البحر بـ (١٠٤٦) مترا، وما يميزها هو أنها تقع في بداية الطريق الذي يوصلك إلى جبل (كاره) الذي هو من ضمن سلسلة جبال حصاروست، وشهد هذا الجبل الكثير من الأحداث التاريخية، فلكل كردي فيه حكاية، وتصل حدود سرسنك إلى حدود جبل (متين).

ويشتهر أهلها بزراعة الكثير من المحاصيل الشتوية والصيفية، كالعدس والحمص والرز، فضلاً عن الفواكه على اختلاف أنواعها، ويشتهر أهلها ايضاً بتربية الأغنام والماعز، وفيها نهر ينبع من قربها ويصب في نهر خابور.

تبلغ مساحة الناحية (٩٠٠)كم مربع وفيها العديد من الآثار والمواقع السياحية المهمة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر (مصيف آشاوا)، الذي كان أول غيث للسحر يملأ عيوننا أنا وصديقي (ريبر).

سحر وجمال وهواء عليل، ولوحات من الحسن تتناثر في أرجاء المصيف، وشلالات تمطرك بنسيم رباني الصنع، كل شيء في هذه المدينة يطربك إلى حد الانتشاء.

كنت حينها أقول كم منصفة الشاعرة (كه زال أحمد) حين قالت:

أنت هنا.. كأنك تطلب من وردة أن تعانق النار ربما مع هذا كله ما يؤكد ظني أن بيني وبين الأرض الكردية علاقة تكاد تشبه الأسطورة.

المخيلة في هذه العلاقة صلبة كأنها طالعة من مادة الواقع والواقع فيها لبن كأنه ماء يتدفق من ينبوع المخيلة.

الطاحونة المائية

ولكني وجدت هناك في (آشاوا) يتدفق العسل والسحر والفتنة من ينبوع الحقيقة.

(آشاوا) كلمة مؤلفة من مقطعين هما (ئاشي- ئاو) أي الطاحونة المائية، وسبب تسميتها يعود لوجود العديد من المطاحن فيها والتي كانت تعمل بواسطة المياه التي تنبع من العيون والشلالات. ومصيف (آشاوا) الذي يبعد عن مركز المحافظة بـ(٦٠) كم يقع على حافة جبل كارا، وعلى الجانب الأيمن من الطريق المؤدي إلى قصور الطاغية، تحيطه بحيرة كانت تسمى ببحيرة (ساجدة) وكان المصيف والعديد من قرى سرسنك هي عبارة عن مستعمرات للطاغية وعائلته، بعد أن قام بتهجير أهلها وسلب بساتينهم وأراضيهم.

والزائر لآشاوا سيلاحظ حتماً شلالها الذي يمطر برداً بثلج صيف المكان، وكذلك أشجارها العالية المتشابكة مع بعضها، ومن بينها عيون الماء بأقصى غابة الجوز تكون شلالها الجميل.

غابات للجنار والسنديان

وما يسحر فيها انك تجد المياه تتدفق من أفواه صخور وكأنها تقول لك (كان يا ما كان) لتروي لك قصة الكهوف الممتدة على طول محيط المصيف. والمحاطة بمظلة رائعة من غابات الجنار والسنديان، التي لها الدور الأكبر في روعة جو آشاوا السحري، علماً أن تلك الأشجار لا تنمو إلا هناك في ظل مياه عذبة وأماكن باردة.

عوائل، شباب، فتيات، شيوخ، أطفال. تجمعت تحت ظلال تلك الأشجار العملاقة تنشد الارتواء من ذلك السحر الطبيعي الذي لا يشابهه سحر، كل شيء هناك يتكلم، الشلال، العيون، الشجر عيون الزوار لتلك القلعة المحاطة بالمياه العذبة، وحركة العمران تجدها ممتدة خارج المصيف لتبني سدا هنا وسدا هناك لإثراء المنطقة ببصمات جمالية جديدة لجذب السياح وإنشاء ثروة سياحية وفق أسس علمية يتسابق على بناء مرتكزاتها المسؤولون هناك.

ما بين دهوك وبغداد

نعم كما قلت لكم دهوك في ثمانينات القرن الماضي كما رأيتها لم تكن دهوك التي زرتها عام ٢٠٠٥ ولم تكن دهوك الآن، كما هو حال بغداد التي رأيتها في سبعينيات القرن الماضي لم أرها هي بغداد الآن، والفارق أني وجدت دهوك وهي تهرول مسرعة نحو التطور والعمران والجمال، وبغداد المنكوبة الآن تهرول مسرعة نحو التخلف والدمار والابتذال!!..

لم يتمالك ضميري الصمت فصرخ بوجعي:

من يرجم الشيطان قبلي
والكل إبليس أراه يدور حولي
يا أيها المترملمون من بعد عيد الحرب- لا.. لا تخجلوا فالحب خصم للكهولة..
الحب حرب- ربما أحلى الحروب
لأنه لم يرتض المطرود من فردوسه غير العراق وسادة لعروسه
هذا العراق ومنذ جرح قصيدتي السمراء
اتعب وقفتي بجلوسه.
المهم.. لا يهم ما دام الإصغاء أبكم.
لن يسألني احد عن هويتي أو عن قوميتي أو عن ديني او مذهبي، أتجول بحضرة المكان كمن يبحث عن دواء لعلة عجز أطباء السياسة عن إيجاد العلاج المناسب لها..

ما تبقى من قصور الطاغية

صودر المصيف عام ١٩٨٦

يقول أبو سمير وهو المسيحي المستأجر للمصيف الذي يعود لشيخ كردي اسمه (سلمان بك)، بأن المصيف افتتح عام ١٩٦٨ كمنتجع سياحي معترف به، وكان ملاذ السياح -أجانب وعرب- في فترة السبعينيات، لكن بعد دخولنا بتلك الحروب التي شنها الطاغية علينا وعلى الجيران تناقص السياح.

وفي عام ١٩٨٦ كما يقول أبو سمير تمت مصادرة المصيف بأكمله وحتى الجبل والقرى المحاطة به من قبل صدام وعائلته.

ويضيف احد المواطنين: إن المصيف والبحيرة التي تحيط به أصبحت ملكاً لصدام بعد أن بنى قصوراً له ولعائلته على محيط المصيف وعلى امتداد جبل كارة، فضلاً عن بناء قصر له على قمة الجبل..

تركت الجمال وحديث الأخوة هناك وانطلقت مع صديقي ريبر باتجاه قمة الجبل، فصدمت بهول ما رأيت، فمنذ البداية لاحت رؤوس الخراب، هياكل كونكريتية وأسيجة على طول الطريق هي كل ما تبقى من تلك القصور التي تدل أساساتها على أن الدكتاتور بناها وكأنه باق إلى الأبد.

دولفينات في بحيرة ساجدة

يقول كاكا محمود وهو من أبناء قرية قريبة من مصيف (ئينشكي)، إن صدام بنى تلك القصور في فترة حربنا مع إيران، وكنا في حالة خوف وحزن ونحن نشاهد حمايات تطوق المكان وتحيط قرانا بالأسلاك الشائكة وجدران قصوره الفارهة، وكانت طائرات الهليكوبتر تأتي بأنواع من الأثاث التي لم ترها عيوننا من تحف كلها أوروبية الصنع، فأثرنا ترك قرانا مرغمين خشية على حياتنا من مجاورة المجرمين، ولكننا -والكلام لمحمود- عدنا إليها والحمد لله بعد الانتفاضة في عام ١٩٩٢ وتم افتتاح المصيف من جديد شأنه شأن المصايف الأخرى.

توقفت وأنا غير مستغرب مما فعله ذلك المجرم بنا، كيف بنى تلك القصور وكانت القبور تبنى يومياً لأبناء العراق من خلال حربه المدمرة مع إيران، كان العالم كله مشغولاً بهذه الحرب وهو مشغول بقصوره وببحيرة سجودته التي أراها الآن بلا دولفيناتها التي جلبها لها من الخارج..

أي مجرم ذلك الذي يجرؤ البعض على تسميته بطل القومية الفارغ بعد ضم باء البطل، وللأسف تصرفات بعض المسؤولين الآن في العراق الجديد

دفعوا ببعض الضحايا إلى دائرة الحنين للجلاد، ويا ليتهم يعون حقيقة الأمر ويتداركونه.

(احذر هنا ألغام)

والسيارة تتجه بنا صوب القمة تلاحظ أسيجة القصور تسير معك، كم من قصر كان هنا ولكن المعروف أن لصدام (٧٢) قصراً في العراق والبعض يقول (١٠٠)، ورأي آخر يقول (٤٢) قصراً وقد تكون كذلك. ولكن نستثني منها قصور ساجدة وعدي وقصي وبناته وأزلامه من فريق الطغيان والإجرام الوحشي.

وكذلك تجد علامات خشبية على طول الطريق كتب عليها (احذر هنا ألغام)، وحذرنا من ذلك ولكن الأشجار والحشائش والورود لم تحذر فملأت الطريق وجوداً وسحراً، وصلنا إلى قمة الجبل،حيث هناك ساحة كبيرة صبت بالاسمنت فتراها وكأنها ساحة ملعب لكرة السلة لصفاء صبها، فقال لي (ريبر) إنها كانت مدرجاً لنزول طائرات الهليكوبتر التي يأتي بها صدام وعائلته إلى قصورهم، وعلى الخلف منها بناء وهو عبارة عن مركز لمرسلات إذاعة تلفزيون دهوك، وحين تقف على القمة تشاهد العمادية وهي تتبختر بقمتها ومئذنتها، والقرى المحيطة بالجبل.

الكرة طائرة على القمة

عوائل افترشت أرضية المطار والشباب يلعبون الكرة الطائرة في ساحته، طلبت منهم أن يصورونا أنا وصديقي (ريبر)، وكانت الموسيقى الكردية تملأ المكان خارجة من داخل إحدى سيارات العوائل.

يقول احد الشباب الموجودين فوق قمة الجبل، كنا نتمنى أن تتحول تلك القصور إلى مناطق سياحية بكامل أثاثها، ولكن للأسف قام بعض المواطنين ونتيجة لما فعله النظام بهم إلى تدميرها بهذه الصورة، والانقاض التي رأيتها تحتاج إلى جهود كبيرة في سبيل إزالتها وتنظيف المنطقة منها، ومن الممكن جداً الإفادة من تلك الأسيجة الكونكريتية لبناء دور استراحة على ذلك الطريق. والحقيقة كنت أتمنى من جميع المسؤولين في دولتنا التوجه لزيارة تلك المنطقة ليعرفوا كم من القصور بنى ذلك الطاغية هناك وكم من الأرواح أزهقت في سبيل بناء تلك القصور التي تحولت إلى قبور لوحشيته وإجرامه، حتى يدركوا إلى أين يؤدي مصير الطغاة والجبابرة الذين ظلموا شعوبهم ولم يفكروا بغير منافعهم ومكاسبهم وإرضاء نزواتهم، لا ادري هل ستوخزهم ضمائرهم حقا حين يزورونها.. لا أدري!.

ليش متعطلة وصلتي؟

وأنا انظر من خلال طريق العودة كيف تعانق المآذن الصلبان ولا نجد ناحية أو قرية تخلو من مسجد وبجواره كنيسة، ولم اشعر بان ذلك الكردي -مسيحي أو مسلم- أو ذلك يزيدي أبداً لم ألحظ ذلك.. وكانت غاية أمنيتي أن أجد تلك الصورة في بقية مدن العراق لأقول لتلك الفرحة ما قاله الراحل محمد الغريب لفتاة أحبها بتالي العمر:

وين جنتي.. وين جنتي..
وليش متأخرة علي كل هالسنين
وليش ما طيفج اجة وفزز صفنتي
وين جنتي . ليش من دك الجرس ما صارن عيونج فرصتي
ليش من خلص عمرنه شو ظهرتي
ليش ما جيتي كبل لا توصل الفضة الكذلتي
وليش من عبرن محطاتي ركبتي
وين جنتي جان هسه أدموعي ماكو وخابصة العالم ضحكتي
وليش متعطلة وصلتي
وين جنتي

الطريق المؤدي الى قصور صدام تحيطه بحيرة (ساجدة)!

كلمة (آشاوا) مؤلفة من مقطعين (ئاشي- ئاو) وتعني الطاحونة المائية

في عام ١٩٨٦ تمت مصادرة المصيف والجبل من قبل صدام وعائلته

الينابيع تجود بمياه الحسن والفتنة

يلعبون الكرة الطائرة على قمة جبل كاره